اللغات الوطنية والتنمية

د . بوجمعة وعلي
باحث في اللسانيات الاجتماعية _ بالمغرب

ملخص:
تتناول هذه الدراسة المتواضعة أهمية ودور اللغات الوطنية أو القومية في التنمية والنهضة والتطور، ذلك أن كل الدول التي شهدت طفرات تعليمية وثقافية واقتصادية وعلمية وصناعية وتكنولوجية، إنما اعتمدت على لغاتها الوطنية ر غم كونها لغات ليس تاريخ ثقافي وعلمي في الماضي أو حضور اقتصادي وتداولي عالمي في الحاضر، وما تركيا وفنلندا والهونكونغ وسنغافورة واليابان وإسرائيل وإيران إلا نماذج حية على ما نقول.
لذلك فإن التنمية والنهضة لا يمكن أن تتحققا من خلالاستيراد المشاريع اللغات والثقافات أيا كانت درجة تطورها وتفوقها العلمي والاقتصادي، بل من خلال اللغات الوطنية للدول والتي يتداولها العامة والخاصة في كل مجالات الحياة دون استثناء.
الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الوطن؛ القوم ؛ التنمية؛ النهضة؛ التطور؛ التقدم؛ العلم؛ الاقتصاد؛ الثقافة...

مقدمة

إن مجتمع المعرفة المؤدي حتما إلى التنمية، والذي ينبني أساسا على التعليم والتعلم مدى الحياة، يقوم على اللغة في التواصل والفهم، وبناء المهارات الإنسانية، وفي الاقتصاد والسياسة والثقافة والفنون[1]. فاللغة هي المحور الذي يدور عليه فلك المعرفة والتعلم والتنمية، وهي الأداة التي لا غنى عنها في جميع فروع المعرفة الإنسانية علوما كانت أو آدابا أو فنونا.[2]

فما هي اللغة؟ وما هي التنمية؟ وما هي علاقة الأولى بالثانية؟ وكيف يمكن للغةالقومية أن تكون عنصرا فاعلا في عملية تنمية مجتمعاتها؟

1–مفهوم اللغة

يرى معظم علماء اللغة قديما وحديثا أن اللغة بمثابة:

–مؤسسة ترميزية اجتماعية تساير تطور الحاجات وتغير ظروف العيش وتنوع الاتصال والاحتكاك بالآخرين.[3]

– أداة التواصل واكتساب المعارف وتنمية الأفكار وهي الرابطة المتينة التي تحفظ أفراد الجماعة وتضمن لهم البقاء والنموبما تحمله من ثقافة موحدة [4].

– نظام من رموز ملفوظة عرفية بواسطتها يتعامل ويتعاون أعضاء المجموعة الاجتماعية.

2– مفهوم التنمية

التنمية لغة هي النماء، أي الازدياد التدريجي، يقال نما المال ونما الزرع نموا أي تراكم وكثر، ويستخدم مصطلح التنمية عادة، بمعنى الزيادة والنمو في المستويات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها[5].

فالتنمية إذن هي العملية التي تبذل بقصد وفق سياسة عامة مدروسة، لإحداث تطور اقتصادي واجتماعي وثقافي للناس، بالاعتماد على المجهودات الحكومية والأهلية (المجتمعية) المنسقة على أن يكتسب كل منهما قدرة أكبر على مواجهة مشكلات المجتمع.[6]

وهناك تعاريف كثيرة ومتعددة منها:

– التنمية عملية مجتمعية تراكمية، تتم في إطار نسيج من الروابط بالغ التعقيد، بسبب تفاعل متبادل بين العديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية، الإنسان هدفها النهائي ووسيلته الأساسية.[7]

فالتنمية عملية شاملة لأنشطة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، مرتبطة بمشروع واضح الفلسفة والاديولوجية، ويهدف إلى بناء الإنسان وإطلاق طاقته الكامنة، وتطوير كفاءاته لتوظيف عالم الأفكار لديه لبناء عالم الأشياء وتنظيم عالم العلاقات.

– التنمية عملية تعبئة وتنظيم جهود أفراد المجتمع وجماعاته، وتوجيهها للعمل المشترك مع الهيئات الحكومية بأساليب ديمقراطية لحل مشاكل المجتمع ورفع مستوى أبنائه اجتماعيا واقتصاديا وصحيا وثقافيا عن طريق الانتفاع الكامل بكافة الموارد الطبيعية والبشرية والفنية والمالية المتاحة.[8]

– التنمية هي إحداث مجموعة من المتغيرات الجذرية في مجتمع معين بهدف إكساب ذلك المجتمع القدرة على التطور الذاتي المستمر بمعدل يضمن التحسن المتزايد في نوعية الحياة لأفراده، أي زيادة قدرة المجتمع على الاستجابة للحاجات الأساسية المتجددة لأعضائه، عن طريق الترشيد المستمر للموارد المتاحة وحسن توزيعها.[9]

3– اللغة والتنمية

إن اللغة تتجاوز كونها أداة للتواصل بين الناس إلى عامل أساسي ورئيسي في التنمية الروحية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية، ووسيلة من وسائل توحيد الأمة فكريا وسياسيا واجتماعيا... .[10]

فالتنمية بصفتها ديوان الثقافة، مسؤولة عن التعجيل ببث التنمية في شرايين مختلف القطاعات أو تكبيلها وتأخير إطلاقها، ومن تم فإن اللغة هي العامل الأساسي في نشر المعرفة وتطوير الملكات والقدرات وإطلاق الطاقات، وأداة التفاعل مع العالم الخارجي واستيعاب متغيراته.[11]

وإذا كانت اللغة وسيلة ربط الإنسان بواقعه ومحيطه، وأداة إدراك المعلومات والمعارف ونقلها والتفاعل معها، فهي أيضا الأداة الفاعلة والحاملة لأسباب التنمية.[12] فاللغة توجد في قلب البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حيث لم يعد هناك خلاف على مكانتها وأهميتها في مجال التنمية وتطوير كل عناصر وأشكال الحضارة[13]، إن لها بعد فكري وتنموي واقتصادي، وهي أداة نقل المعارف والمعلومات إلى عموم القوى المنتجة، وأداة الإنتاج والإبداع والتواصل والتنافس في مجتمع المعرفة، بل إن مفعولها يتجاوز ذلك إلى رسم الأوطان اللغوية كوطن العربية ووطن الفرنكوفونية ووطن الأنجلوساكسونية.[14]

4- اللغة الوطنية والتنمية

إذا كانت اللغة رافعة التنمية وجسر العبور إليها، فإن اللغة الوطنية أو القومية أساس تقدم الدول والأمم التي استفادت من التراكم المعرفي الإنساني في مجال التخطيط والتنمية وحققت النهوض والتطور بلغتها وخصوصياتها الحضارية والنفسية والاجتماعية والفكرية ومن بين هذه الدول نذكر الصين واليابان[15] وماليزيا وسنغافورة وتركيا وإيران وكوريا وإسرائيل. كما أن الدول الأوروبية نشأت على أساس لغوي قومي، فاهتمت بلغاتها القومية، وذالك لإدراكها أن وحدة لغتها وأصالتها تمثل عاملا أساسيا من عوامل بقائها واستقرارها وتنميتها.[16]

فاستيراد المناهج والمخططات واللغات، لا يؤدي إلى أي شكل من أشكال التنمية، بل بالعكس من ذالك يؤدي إلى التمزق النفسي والاضطراب الفكري، لأن لكل أمة خصوصيتها ولغتها وعقيدتها وتصورها للكون والإنسان والوجود والحياة، وشخصيتها التاريخية والحضارية، إنما تتشكل من خلال ذلك كله، والتنمية المنشودة لا بد أن تنبني على تلك الخصوصيات وتأخذ بها[17]، فليس هناك بلد في العالم نجح في رهان التنمية بغير لغته القومية، وفي هذا الصدد يرى الدكتور عبد السلام السيد حامد أن "النموذج الياباني ينطق بأنه لا علاقة للتقدم باستيراد لغة أجنبية، فهو بلد تقدم لأنه ترجم ترجمة واسعة علوم العصر واستوعبها بلغته دون أن يتعلم كل أبنائه الانجليزية أو غيرها، ودون أن يهجروا لغتهم برغم صعوبتها، ودون أن يكونوا أحفاد أوروبا، هم استوعبوا المعرفة بلسانهم وجعلوها جزءا من نسيج الحياة فأبدعوا فيها".[18]

إن الأمم الحية التي تطورت ونهضت لم تقم بذلك إلا بلغتها القومية، يقول **فيخته** في دعوته إلى اعتماد لغته القومية الألمانية في نهضة أمته (إن التربية التي ننشدها ينبغي لها أن تكون وطنية، ينبغي أن تكون باللغة

الألمانية، والمعلمون ينبغي لهم أن يعلموا بالألمانية، واللغة المدرسية تكون بالألمانية، ذلك لأنني لا أتصور كيف يكون الأمر غير ذلك إنني لا أتصور أن يعلم المعلمون، وتكون لغة الدرس لغة أخرى غير اللغة الألمانيةأيا كانت هذه اللغة).[19]

فالتنمية المجتمعية الشاملة لن تقوم لها قائمة، بإحلال لغات أجنبية محل اللغات الوطنية القومية، لأن مجتمع التنمية ينبني على الحرية والاختيار والأصالة، وليس هناك أي مبرر يسوغ فرض لغة أجنبية على المواطن في تعليمه، وتكوينه وتثقيفه وإبداعه[20]، وهذا لا يعني الدعوة إلى الانغلاق على اللغات القومية وحدها وإغلاق الباب أمام الانفتاح على العالم، بل بالعكس تماما، يجب تعليم لغات الأمم والشعوب الأخرى، والانفتاح على ثقافتهم وحضارتهم وعلومهم، ومعرفة ما يجري في هذا العالم الذي أصبح قرية صغيرة تتداخل فيها كل الأشياء، لكن تداول ونشر علوم الآخرين يجب أن يكون داخل المجتمع بلغته التي يقرأها ويفهمها ويتواصل بها، لغة المجتمع والطبقة العاملة، لأن في ذلك ترويج واسع للعلم والمعرفة من جهة، ومن جهة أخرى هناك إمكانية إشراك كل الناس وتشجيعهم على الإبداع والتطور، فقد أثبتت كل التجارب الإنسانية الناجحة في التنمية أن تعلم اللغات الأجنبية من أجل الاستفادة من التطور العلمي والتقني أمر جيد لكن نشر ذلك يجب أن يكون بلغة الناس القومية[21]، فنقل المعرفة والتكنولوجيا وتوطينها في أي مجتمع لا يتم إلا عن طريق تعليمها وتداولها، ونشرها بلغة القوى العاملة أي اللغة الوطنية.

إن مجتمع المعرفة المتوخى بناؤه والملازم للتنمية البشرية من حيث المبدأ لا يمكن أن يتحقق إلا باكتساب أفراد المجتمع العلوم والمعارف والتقنيات بلغتهم القومية[22]، بل إن مخاطبة الناس في برامج التنمية بغير لغتهم القومية والوطنية، يعتبر عائقا تنمويا يعطل بشكل كبير عجلة التطور والتقدم، لأن سير التواصل وتداول المعارف والعلوم والمعلومات فيما بين أوسع شرائح المجتمع شرط أساسي ورئيسي للتنمية، وتقاسم اللغة المكتوبة الواحدة(اللغة الوطنية) شرط أساسي في الرفع من جودة وحجم ذلك التواصل[23]، ويرى الكثير من الباحثين في مجال التنمية أن إنتاج المعرفة وتنميتها واستغلالها وتداولها، عملية تستلزم وحدة وتجانس لغة المجتمع، فأمريكا كأكبر قوة اقتصادية وعلمية وعسكرية في العالم ,بدأت في توحيد لغة التعليم لديها في منتصف القرن 18م، وعممت الإنجليزية في مطلع القرن20م، والصين كذلك رغم شساعةمساحتها وضخامة عدد سكانها تعتمد اللغة الصينية كلغة للتعليم.[24]

إن تحقيق أي مجتمع للتنمية ونجاحه فيها لا يمكن أن يتحقق بلغة غيره مهما تكن قوة تلك اللغة وقوة متكلميها العلمية والسياسية والاقتصادية والثقافية، لأنه ببساطة يكون كمن يبني لغيره، فالتنمية لا تكون

باستعارة أهم أداة من أدوات صنعها وهي اللغة، التي يعتبرها الكثير من الباحثين والمختصين أحد أدوات الإنتاج الحضاري الضرورية للتنمية الشاملة لأي أمة من الأمم.[25]

إن اللغة الوطنية القومية، تشكل وسيلة لا بديل عنها، لأي إبداع أدبي أو علمي مستقل ومتميز، فليس هناك أمة أبدعت وتميزت حضاريا أو علميا أو أدبيا بغير لغتها القومية الراسخة فيها، والتجربة اليابانية والصينية والكورية والإسرائيلية والتركية والإيرانية شواهد على ذلك.

لذلك فإنه من العبث أو الوعي الشقي العمل على تنمية مجتمع ما وتعليمه ونهضته، وتعميم العلوم والمعارف فيه بلغة لا يفهمها ولا يتكلمها ولا يتواصل بها ولا يبدع بها إلا قلة قليلة في مجتمع ما من سكانه.[26] ومن تم فإنه كلما ارتفعت نسبة المتكلمين بلغة ما في مجتمع ما كلما قلت فيه نسبة الأمية وارتفعت نسبة التعلم، وهذا ما يؤكد أهمية اللغة الجامعة في كل المجالات التعليمية والاقتصادية والثقافية والفنية والتنموية.

وإذا كان التعليم أساس نهضة الأمم فإن لغته يجب أن تكون هي اللغة القومية لكل أمة، لأن هناك علاقة وطيدة ومتلازمة بين لغة التدريس والتنمية. فكلما كانت لغة التدريس لغة القوم كلما كانت فرص نجاح التنمية كبيرة. وهذا ما تؤكده تجارب الدول المتقدمة، إذ ليس هناك دولة متقدمة واحدة تدرس بلغة غير لغتها، فالدول الأوربية والأمريكية والأسيوية التي تستخدم لغاتها الوطنية في التعليم والاقتصاد والثقافة فقط هي الدول المتقدمة[27]، يقول عالم المستقبليات المغربي المهدي المنجرة إن "التجارب في العالم بأسره برهنت أنه بدون الاعتماد على اللغة الوطنية القومية، وبدون لغة الأم في تعليم العلوم ,لن يكون هناك تقدم حقيقي واستطيع أن أقدم لكم نماذج من كوريا وتايوان واليابان وماليزيا والصين وغير ذلك".[28]

لذلك فإن على الدول الساعية إلى النهوض والتنمية، أن تحرص على استعمال لغتها في كل مجالات الحياة وتطويرها والحفاظ عليها، باعتبارها إحدى أهم الخصوصيات المميزة لها، لأن استعمال غيرها وخاصة في مجال التربية والتعليم والبحث العلمي يحمل تبعية حضارية وثقافية تعوق ولوج هذه الشعوب إلى عالم التنمية[29].

لذلك فإن التعليم والتعلم باللغة الوطنية أو القومية ليس استجابة للمشاعر القومية فقطولكنه أيضا استجابة للحقائق العلمية والتربوية التي أثبتت أن تعلم الإنسان بلغته أقوى مردودا وأبعد أثرا، وأنه أحفل بالنتائج الخيرة من الناحية الكمية والذاتية[30]، وفي هذا الإطار يرى الدكتور سليمان العباس أن التجارب في أكثر من مكان وزمان أثبتت بالقطع أن تحصيل الدارسين بلغتهم الوطنية، يفوق دائما تحصيل الدارسين باللغات الأجنبية، لأن اللغة الوطنية تقصر أمامهم المسافات وتبعد عنهم المخاوف.[31]

خاتمة:

الخلاصة أن التنمية حسب معظم الباحثين والدارسين والمختصين، لايمكن أن تتحقق إلا باللغة الوطنية للدول أيا كانت درجة تطورها، ذلك أن كل الدول التي تطورت وحققت نسبا عالية من التنمية البشرية والصناعية والتجارية والعلمية والتكنولوجية... تدرس وتبحث وتتعامل في مؤسساتها الرسمية بلغاتها الوطنية وإن لم تكن من اللغات المعروفة والمنتشرة في العالم، وتركيا وايران وكوريا الجنوبية وسنغافورة وإسرائيل والهونغونغ أمثلة حية على ما نقول، بل إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن لتصل إلى هذه الدرجة من التطور لو لم تكنلجميع ولايتها الخمسين نفس اللغة(الانجليزية) هذا ينطبق أيضا على الصين، عكس الاتحاد الأوربي الذي يتميز بتعدد لغاته مما يعرقل حجم التطور والتنمية المشتركة بين دوله.

الهوامش:

[1]– تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي 2003، ص. 121.

[2]– حافيظي، اسماعيلي علوي، للغة العربية والتنمية البشرية، اللغة العربية في تقرير التنمية الإنسانية العربية، دراسة نقدية، ص. 135.

[3]– عبد العزيز، حليلي، الخيارات في المغرب العربي، مجلة آفاق عدد71/70، مارس 2006، ص. 150.

[4]– لغة التدريس والنموذج التنموي، تقديم، مجموعة من الباحثين، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية، وجدة، 2010، ص. 09.

[5]– إبراهيم، حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ص. 23.

[6]– أحمد، زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص.187.

[7]– عبد المنعم، شوقي، تنمية المجتمع وتنظيمه، ص.43 .

[8]– صلاح، العبد، محاضرات في تنمية الجماعات المحلية، ص. 7.

[9]– حامد، الفرنشاوي، التنمية في دول مجلس التعاون الخارجي، عالم المعرفة، عدد 103، ص. 57.

[10]– إدريس، بوكراع، اللغة والحضارة، لغة التدريس والنموذج التنموي، ص. 104.

[11]– محمد، الكتاني، تقويم دور الإعلام في النهوض باللغة العربية في الحياة العامة، اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، ص.154.

[12]– محمد، غاليم، عن مقتضيات التنمية وأفاق اللسانيات العربية، اللغة العربية والتنمية البشرية، ج 1، ص.177.

[13]– عبد القادر، الفاسي الفهري، حوار اللغة، ص. 148.

[14]– محمد، الأوراغي، لسان حضارة القران، ص. 42.

[15]– إبراهيم، حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ص.14.

[16]– سليمان، العباس، اللغة العربية والتنمية البشرية، تلازم الترجمة والتعريب وعلاقتهما بالتنمية، ج1، ص. 625.

[17] عبد السلام، السيد حامد، تلازم الترجمة والتعريب وعلاقتهما بالتنمية، اللغة العربية والتنمية البشرية، ج1، ص. 609.

[18] – محمود، السيد، واقع اللغة العربية في الوطن العربي وأفاق التطوير، مجلة لسان العربي، عدد 66، 2010، ص. 14.

[19]– محمود، السيد، واقع اللغة العربية في الوطن العربي وأفاق التطوير، مجلة لسان العربي، عدد 66، 2010، ص.103.

[20]– عبد القادر، الفاسي الفهري، حوار اللغة، ص. 209.

[21]– عبد القادر، الفاسي الفهري، حوار اللغة، ص. 200.

[22]– رشا، الخطيب، استعمال الرسوم المتحركة في تعليم مهارات العربية الفصيحة للأطفال، اللغة العربية والتنمية البشرية، ج 1، ص. 240.

[23]– رشيد، بلحبيب، اللغة العربية وسيلة للتنمية، اللغة العربية والتنمية البشرية، ج 1، ص. 70.

[24]– سليمان العباس، اللغة العربية والتنمية البشرية، تلازم الترجمة والتعريب وعلاقتهما بالتنمية، ج1، ص. 625.

[25]– امحمد الطلابي، التعريب بين الوعي المفوت والوعي المطابق، أسئلة اللغة العربية بالمغرب، مجلة الفرقان، عدد 2010/65، ص. 8.

[26]– امحمد الطلابي ,التعريب بين الوعي المفوت والوعي المطابق، مجلة الفرقان، مرجع سابق ص. 3.

[27]– عبد الوافي مزيان، وعز الدين مزوعي، لغة التدريس واللغات الوطنية وعلاقتها بالتنمية، لغة التدريس والنموذج التنموي، ص. 81.

[27]– انظر: المهدي المنجرة، قضايا التربية والتعليم بالمغرب، حوار، مجلة علوم التربية، عدد 2 و3، سنة، 1996.

[29]– عبد الوافي وعز الدين مزروعي، لغة التدريس واللغات الوطنية وعلاقتها بالتنمية، لغة التدريس والنموذج التنموي: أي علاقة! ص 10.

[30]– حسن الشريف، العولمة والثقافة واللغة: القضايا الفنية، أسئلة اللغة، الرباط، منشورات معهد الدراسات للتعريب، 2002، ص. 43.

[31]– سليمان العباس، تعريب التعليم الجامعي في الوطن العربي، الأردن نموذجا، اللغة العربية والتنمية البشرية، ج1، ص. 621.

المراجع المعتمدة:

1- أحمد، زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ط 2، 1986.

2- إبراهيم، حسين العسل: التنمية في الفكر الإسلامي، مفاهيم، عطاءات، معوقات، أساليب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، ط 1، 2006، بيروت، لبنان.

3- عبد المنعم، شوقي: تنمية المجتمع وتنظيمه، مكتبة القاهرة، ط 2، 1961.

4- صلاح، العبد، محاضرات في تنمية الجماعات المحلية، دورة أخصائي التنمية الريفية في لبنان، 1965.

5- محمد، الأوراغي، لسان حضارة القران، دار الأمان المغرب، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية ناشرون لبنان, ط 1، 2010.

6- محمد، الأوراغي، التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 36، ط1 2002,.

7- عبد القادر، الفاسي الفهري، حوار اللغة، إعداد حافيظي اسماعيلي، منشورات زاوية الفن والثقافة، ط1 ،2007.

8- عبد العزيز، محمد الحر، التربية والتنمية والنهضة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة1,2003.

9- اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، ندوة أكاديمية المملكة المغربية، الربا ط، أكتوبر 2010.

10- اللغة العربية والتنمية البشرية: الواقع والرهانات، الجزء الأول، ندوات ومؤتمرات 1، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية، وجدة، ط 1، 2011.

11- لغة التدريس والنموذج التنموي أي علاقة؟ أيام دراسية 1، مركز الدارسات والبحوث الإنسانية، وجدة، ط 1، 2010.

12- مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، عدد 71/70، مارس 2006، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

13- مجلة الفرقان، أسئلة اللغة العربية، عدد 65/ 2010.

14- مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، عدد 66، دجنبر 2010.

15- مجلة عالم المعرفة، عدد 103، تموز 1986.

16- مجلة علوم التربية، عدد 3/2 سنة 1996.